Les waqfs dans la région du Touat: exemple des waqfs de Ksar Koussan

Mohamed HAOUTIA

La région du Touat a connu, à l'instar des autres régions d'Algérie, la procédure du waqf. Les waqfs y étaient toutefois conditionnés dans leur nature et leur expansion par la spécificité de l'environnement, de la société locale et les caractéristiques de l'économie de cette région saharienne isolée du sud-ouest algérien.

Les waqfs de la région du Touat représentaient une forme de charité reflétant la réalité sociale locale de l'économie traditionnelle reposant sur un mode de vie social et communautaire fondé sur les actes de bienfaisance et la garantie d'un niveau de vie minimal pour les individus.

Les nombreux waqfs du Touat englobaient des jardins, des ressources en eau, des biens fonciers, etc. Ils étaient régis par des institutions organisées dont les plus importantes étaient les différentes zaouias affiliées à des confréries religieuses. Ainsi, on dénombrait les waqfs de la confrérie Moussaouia, de la confrérie Kadiria et de la confrérie Taïbia, ainsi que les waqfs des mosquées et quelques riches et influentes familles de la région.

Afin de tirer un enseignement concret et significatif de notre communication, nous présentons un document de waqf d'un Ksar du Touat (Koussan), conservé dans le fonds du Cheikh Sidi Abdallah el-Balbali. Nous en avons fait une analyse du style, du récit et des objectifs prescrits. Nous pouvons y voir un exemple des nombreux documents de waqf dans la région du Touat qui attendent les efforts des chercheurs. Enfin, nous joignons à cette communication une copie de ce document.

○ أوقاف إقليم توات:
نموذج أوقاف قصر كوسان

محمد حوتية

أوقاف إقليم توات:

نظرا لخصوصية الإقليم من الناحية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية فقد تأثر إقليم توات إلى حد بعيد بالظواهر الإيجابية التي جاءت بها الشريعة الإسلامية، فموقعه الإستراتيجي جعله قبلة للتجار والمسافرين وعابري السبيل وطلاب العلم، فكان لزاما على سكان قصور توات إيجاد طريقة مثلى لإيواء الضيوف وإطعام الآخرين فكان لا بد من استحداث مرافق لفائدة المعوزين والفقراء من أجل سد رمقهم وإيواء أبناء السبيل منهم وكفاية المحتاجين منهم بغية منعهم من مد أيديهم إلى كل من هب ودب، ولصيانة كرامة هذه الطوائف وجد على مستوى كل قصر من قصور توات أوقاف اشتملت على البساتين ومياه الفقاقير والمنازل.

ولهذا فإن الأوقاف قد مست عدة هياكل كالزوايا والمساجد والأماكن المقدسة والطلبة والأئمة، فاستنادا إلى وثيقة وقف الولي الصالح سيدي سليمان بن علي بقرية أولاد أوشن يمكن لنا أن نعتبره أول من أوقف بإقليم توات وذلك عام 585 هـ، فقد أوقف هذا الرجل الصالح كل ما يملكه من مساكن وبساتين ومياه لزاويته، وقد حدد هذا الوقف حسب وصيته على ما يلي:

- يستفيد أولاده وأولاد أولاده منها مهما تناسلوا وامتدت فروعهم إلى أن يأتي حاكم جائر أو من أراد أن يوقف وقفه فيقسم على ورثته للذكر مثل حظ الإنثيين.
- ينفق من الوقف لتعليم القرآن والسنة النبوية والفقه الإسلامي.
- إعانة كل المحتاجين من عائلته.
- يصرف الوقف في تزويج الفقراء والمساكين من أهل الحبس.
- إعانة الفقراء على شراء أضحية الأضحى والعقيقة للفقراء والمساكين.
- يستفيد الفقراء من وقفه في شراء اللباس مرة في السنة.
- ينمو الوقف ويشتري منه أملاك للزاوية من بساتين ودور ومياه.
- يستثمر فائض الوقف بزيادة أبار الفقاقير(1).

نفس الظاهرة تتكرر في جميع قصور توات التي نجد معظم قصورها التي تزيد عن ثلاثمائة وعشرون قصرا تسلك نفس الظاهرة فتخصص بها أوقاف حتى يتسنى لسكانها إطعام الطعام للفقراء والمحتاجين وتعليم العامة القراءة والكتابة وتحفيظ القرآن الكريم والسنة النبوية.

ونظرا لوجود الوقف بكل قصور توات إرتئينا أن نعرف بوقفية تخص حبس عائلة عبد الله البلبالي بكوسان هذا، فتستهل الوثيقة بالحمد والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ثم تحدد نوعية الوقف في أعلى الورقة ثم يذكر إسم الشاهدين وتاريخ الوثيقة التي كتبت فيها وما تم وقفه بالمكان وعلى من أوقفه من ذكور وإناث ثم يحدد نوعية الوقف إن كان دارا أو بستانا فتعرف بحدوده من جميع النواحي، من تؤول له حق منفعة الوقف من الأولاد ثم أولاد الأولاد، مع التأكيد بأنه لا يبدل عن حاله ولا يغير عن هدفه، وسيعاقب كل من يحاول التبديل أو التغيير وتنتهي الوثيقة بإسم الشاهد على ذلك(2).

وهناك وثائق أخرى جاءت مكملة للوقفية الأصلية تتعلق باستغلال الحبس ويحدد فيها إسم الحائز له فلان بن فلان فترد فيها عبارات خاصة مثل أنه يتم ما حوز له أمام المشاهدين بالطواف عليه من الجهات الأربعة حتى لا يخرج عن الحدود المرسومة له، إن كانت أرضا، أو أن يقوم بعمل أمام الشاهدين إن كان بستانا فيقوم فيه بقطع جريد نخله وتصريف الماء إليه، وتسليم المفتاح إن كان منزلا والدخول له والطواف بجميع أرجاءه، والصعود والهبوط إن كان له سطحا، ويتم هذا أمام الشاهدين ويحدد اليوم والشهر وتاريخ الحيازة في الورقة(3)، ونفس الشيء بالنسبة ما يتعلق بالوصية وما إلى ذلك، ولهذا فقد كان للوقف تأثير على النشاط الاجتماعي والاقتصادي بإقليم توات يمكن أن نوجزه فيما يلي:

1 - بفضل مردود مداخيل الأوقاف أمكن فتح أبواب الزوايا لتعليم القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وعادة ما يعطى إمام المسجد في

العديد من القصور بستانا تم وقفه، يستغله من الناحية الفلاحية ليسدد به متطلباته الغذائية فيكنى بإقليم توات «جنان الجامع».

2 - التكفل بالطلبة من الناحية المادية من مدخول الوقف فعندما يدخل الطالب إلى الزاوية، وهو ابن السادسة فإن أوقاف الزاوية هي التي تضمن له معيشته وإقامته ودراسته مهما مكث بها.

3 - الإحسان إلى الفقراء والمساكين والمحتاجين وأبناء السبيل.

4 - يساهم المشرفون على الأوقاف في الرعاية الاجتماعية بمساعدة الفقراء مثلا، وذلك بتزويجهم وإعانتهم على شراء أضحية العيد وتقديم العقيقة وإطعام الفقراء، كما يتكفل متولي الأوقاف بشراء اللباس للفقراء مرة كل سنة(4).

5 - الابقاء على تماسك الأسرة، وذلك بوقف الأملاك على أفرادها يصرف عليهم من مردودها، مما حفظ مكانة الأسر وساعد على علاقة التآخي والترابط ما بين أفراد الأسرة الموقوف لها،

هذا ولا يفوتنا في ختام هذه المداخلة أن نشير إلى أن ما يلاحظ في صعوبة إدارة ممتلكات الأوقاف بإقليم توات، ذلك لأن هذه الأوقاف كانت يستغل من طرف العائلة فيتوارث الوقف من جيل إلى جيل إلى إنطفاء الشعلة التي أسس من أجلها، وهذا ما جعل الوقف لا يؤدي الوظيفة التي أقيم من أجلها. فضلا على أن الأوقاف في معظمها موقوفة على التأبيد مما يجعل إستمرارية الوقف والمحافظة عليه مسألة أساسية، وهذا ما يتطلب تدفق مالي يساعد الأملاك الوقفية على ترميمها أو صيانتها وهذا

ما يؤدي في العديد من المرات إلى إنهيار الأملاك الوقفية وانقطاع استغلالها وبالتالي يتوقف الإنتفاع منها.

الهوامش:

(1) – وقف الولي الصالح سيدي سليمان بن علي، خزانة سليماني علي بأدغا.
(2) – عبد اللّه البلبالي، وثيقة الحبس خزانة الشيخ عبد اللّه البلبالي بكوسام.
(3) – عبد اللّه البلبالي، بلبالي بكوسام.
(4) – وقف الولي الصالح سيدي سليمان بن علي، خزانة سليماني علي بأدغا.

المصادر والمراجع المعتمدة في العرض:

1 - ناصر الدين سعيدوني، تاريخ الوقف ودوره الاجتماعي والاقتصادي دورة إدارة الأوقاف الإسلامية 21-25 نوفمبر 1999.

2 - محمد لمين بكراوي، التسيير الإداري للأوقاف في الجزائر، دورة إدارة الأوقاف الإسلامية 13-17 شعبان 1420، الموافق 21-25 نوفمبر 1999.

3 – محمد طرفاني، قراءة قانونية في تنظيم الوقف في الجزائر، دورة إدارة الأوقاف الإسلامية، الجزائر 21-1999/11/25.

4 - وقف الولي الصالح سيدي سليمان بن علي، خزانة سليماني علي بأدغا.

5 - وثيقة الوقف خزانة الشيخ عبد اللّه البلبالي بكوسام.

صورة لنص وقفية قصر كوسام المحفوظة بخزانة الشيخ سيدي عبد الله البلبالي

صورة لنص وقفية قصر كوسان المحفوظة بخزانة الشيخ سيدي عبد الله البلبالي

الحمد لله وحده صلى الله على سيدنا محمد وآله

خزانة الشيخ سيدي عبد الله البلبالي بكوسام

خزانة الشيخ سيدي عبد الله البلبالي بكوسام

وثيقة الحبس